﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

مِفْتَاحُ العَظَمَة

مِفْتَاحُ العَظَمَة

هـو مِفتاحُ الاطِّلاعِ علَـى عَالَمِ المُلكِ والملَكوتِ، ومُشـاهدةِ الآخـرة بأحداِثها وأهوالِها بعيـن اليقين؛ فإنَّ روحَ العبـادةِ وأصلهَا وجَلالهَـا وجمَالهَـا وبهَاءَهَا؛ في تعظيم اللـه جَلَّجَلَالُهُ، وأكثرُ النَّاس معرفةً بربِّهم أشدُّهُم له تعظيمًا وإجلالًا.

فمقصِد هذه الآية؛ تعظيمُ الله تعالى والتفويض إليه.

فأمَّـا تعظيم العبد لربِّه بذكر مُلكِه ليوم الدين؛ فتدُلُّ عليه لوازمُ هذا الوصـف العظيم ودلائلُـه الباهرة؛ التي تدُلُّ علـى عظمةِ مُلكه تعالـى، وكثرةِ جُنده، وكمالِ قوَّته وقهرِه لعبادِه، وقدرتِه على بعثهم بعد موتِهم، وسعةِ علمِه، فلا يعزُبُ عنه شيء، وإحاطته بكلِّ شيء، وإحصائه أعمال عباده، وسـرعة حسابه ومجازاته إيَّاهم، وعدله في جزائه، ورحمته وإحسانه لأوليائه، وعزَّته وشدَّة انتقامه مِن أعدائه،

وحكمتـه الباهرة في موافقة الجزاء للعمـل، وقدرته على توفية كلِّ عاملٍ جزاءه، إلى غير ذلك مِن المعاني العظيمة، والصفات الجليلة الباهرة؛ التي هي مِن أظهر معاني التعظيم لله العلي العظيم.

وأمَّا التفويض إلى الله تعالى فيدُّل عليه تلاشـي كلُّ مُلكٍ دون مُلْكِ الله تعالى، واضمحلال قدرة كلِّ أحدٍ على أن يَمْلِكَ لنفسِه أو لأحدٍ غيره شيئًا، فلم يبق إلا التفويض لله تعالى.

فالآية تدعـوك بكلِّ وضوح إلى تفويـض كل ذرَّةٍ فيك للمَلِكِ العظيـم، كما نـصَّ الحديثُ القُدسـيُّ علـى ذلـك: ودلَّ عليه أيضًا قـول الله تعالى في سـورة الانفطـار: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الإنفطار: ١٧ - ١٩].

فيومُ الدِّين هو يوم التفويض التامّ، مِن جميعِ الأنَام، إلى المَلِكِ العلَّام.

والمؤمـن إذا تلا هذه الآيـة مُعتقدًا معانيها عالِمًـا بمقاصِدِهَا؛ هداه ذلك إلى تعظيم الله تعالى والتفويض إليه؛ فينفعه هذا التعظيم والتفويض يوم يلقى ربَّه في ذلك اليوم العظيم.

والعظمَـةُ الكاملـةُ المُطلَقـة للـه جَلَّجَلَالُهُ، وهـي كَلِمَـةٌ جَامِعةٌ مَانِعـةٌ؛ جَامِعةٌ لِكُلِّ تعظيم يليـقُ بالمَلِكِ العَظيـم، مَانِعةٌ مِن دخولِ أي أحدٍ سـواه فيمـا يليقُ به عَزَّوَجَلَّ مِـن مُقتضيَاتِ المُلـكِ والعظمَةِ فمَن نازعَ المَلِكَ جَلَّجَلَالُهُ في مُلكِه وعظمَتِه وكِبريائه؛ ألبسَه اللهُ في الدُّنيا لِباسَ الـذُّل والعَار، وألقَاهُ يومَ القيامةِ في النَّار، ففي الحديث القدسي: «**الكِبريَاءُ رِدَائِي، والعَظَمَةُ إزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي واحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُه في النَّارِ**»(١).

فاللـهُ عَزَّوَجَلَّ عظيمٌ في ذاته، عظيمٌ في أسـمائِه وصفاتِه، عظيمٌ في مُلكِه وسُلطَانِه، عظيمٌ في خلقِه وأمره، عظيمٌ في عِلمه وكَلِمَاتِه، عظيـمٌ في دينـه وشـريعتِه، ذلَّتْ لعظمتِـه المخلوقـات، وخضَعتْ لجبروتِـه الكائنات، المُلكُ مُلكُه وحدَه، له الأمر والنَّهي وله الخلق والحُكم.

فإخبـاره تعالى بأنَّـه مالِك هذا اليوم ينبغي أن يُثمر شـعورًا في القلـبِ بالـذُّل والفاقـة والاحتياج إلى هـذا المَلِـك المَالِك العظيم وذلـك أنَّه كُلمـا كان الأمر مهولًا شـديدًا وكان الخطـب فيه جليلًا

(١) صحيح أبي داود.

كان مالِـك هذا الأمر عظيمًا ذا هيبة في النفوسِ، تتطلع القلوبُ إلى رضاه واجتناب غضبه وسـخطه، فضـلًا عن أن يكون العبد مخاطبًا له حاضرًا بين يديه.

وليـس هنـاك مِن يـومٍ هو أشـدُّ هـولًا ولا أعظمُ كربًـا مِن يوم الدِّيـن فكانت الفَاقـة إلى مَالِكه أشـد والاحتياج إليـه أعظم وآكد، لـذا كان علـى العبـد الفقيـر الذليل إذا وقـف بين يدي هـذا المَلِك المَالِك الجليل؛ مُصليًا، ألَّا يلتفتَ بقلبِه فضلًا عن قَالَبِه إلى أمرٍ أقل خطبًـا أو إلى مالِـكٍ أصغر مُلكًا وهيبةً! فالله أكبـرُ مِن هذا الذي قد التَفـتَّ إليـه إذ إنَّه سـبحانه وبحمـده ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ ولعلَّك أيُّها الحبيب قد أدركتَ الآن سرَّ اختيار كلمة (ٱللَّهُ أَكۡبَرُ) ليفتتح بها العبادُ صلاتهم دون غيرها مِن سائر الأذكار، ليُقبلَ العبدُ على ربِّه لا على غيره.

وإذا تأملتَ أخي المُتَدبِّر هذا الكلام وجدتَه بيانًا لمعنىً مبثوث فـي كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وهو لا ينبغي بمَـن ءامن بالآخرة وما فيها مِن الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب؛ أن يلتفتَ لدَنَايَا هذه الحياة القصيـرة الحقيرة، بل يسـتعلي عليها كما يسـتعلي الرجُـلُ الحازم العاقل على تطلُعاتِ الأطفال التافهة.

لأنَّ اللـه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لـم يخلُق النَّـاس في الحياة الدنيـا عبثًا ولم يترُكُهم سُدىً، بل هي مراقَبة على العبد، مُحصاة عليه لحظةً لحظةً، مسـئول عن كل وقـتٍ مِن أوقاتها فيمـا أفناه مِن عمـره فيها بين ليل أو نهار، ما عَمِلَ وما لم يعمل، وأن تصفية حسابها -صغيرِه وكبيرِه- واقـعٌ لا محالـة يوم الدِّين، ذلـك اليوم الذي هو غايـة الحياة الدنيا، والذي مِن أجله كان الخَلْقُ كلُّه، وكان الوجود كلُّه، والذي مِن أجله تعيش البشرية أعمارَها، عَلِمَ ذلك مَن عَلِمَه وجَهِلَه مَن جَهِلَه.

ولذلك كانت قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة مِن صلواته إيقاظًـا له مِن غفلتِه، وتنبيهًا له مِـن رقدَتِه، وتذكيرًا له بحتمية وقوع ومَجيء اليوم الآخر، ولحَثِّه على الاستعداد له رَغَبًا ورَهَبًا، بالأعمالِ الصَّالحـة، تركًا للمعاصي وهُجرانًا للسـيئات، وفعـلًا للصالحات وإقبالًا على الطاعات.

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

المَلِـكُ، المَالِـكُ: هـو الذي يسـتغني في ذاتـه وصفاتِه عن كل موجـود، ويحتـاج إليه كل موجـود، والمَلِيك أكثر مبالغـة في تأكيد المُلـك للـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهـو مَلِـكٌ، ومَالِـكٌ، وصاحـبُ المُلـكِ فـي الدُّنيـا، والملكوت فـي الآخـرة، والمَلِك هو صاحـب المُلك،

المتصـرف فيمـا يملك تصرفًـا مطلقًا مِـن جميع الوجوه كما يشـاء ويُقَدِّر.

وكونـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَلِكًا ومالِـكًا ليوم الديـن، لأَنَّه المتصرفُ وحدَه فيـه لا يُنازعُه أحد، قطعًا لذريعة الجبابـرة المُكابرين، الذين نازعـوا اللهَ مُلكِه في الدُّنيا حتى ادَّعوا ما ليس لهم، كالنمرود الذي ادَّعـى الألوهية فقال: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وكفرعون الـذي قـال: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ [الزخـرف: ٥١]، ولذلـك يُنـادي ربُّنـا عَزَّوَجَلَّ فـي الخلائـقِ في ذلك اليـوم: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافـر: ١٦]، يُنـادي ويقـول: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ ؟ فيجيـب نفسـه أو تجيبه الخلائق: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

وقال النَّبيُّ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يَطْوِي اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **السَّمَوَاتِ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُـنَّ بِيَـدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُـولُ: أَنَا الْمَلِـكُ، أَيْنَ الْجَبَّـارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِـمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»[1].

(١) متفق عليه.

والتركيز على حَاكِمية الله ومَالِكية الله ليوم الدين يُقارع مُعتقدات المشركين ومُنكري البعث، لأنَّ الإيمان بالله عقيدة فطرية عامة، حتى لدى مُشركي العصر الجاهلي، وهذا ما يوضِّحُه القرآن إذ يقول: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦١] بينما الإيمان بيوم الحساب ليس كذلك، فهؤلاء المشركون كانوا يواجهون مسألة البعث بعِنادٍ واستهزاء.

فالذي خلق الموجودات ورعاهَا وربَّاها، وأفاض عليها مِن نِعَمِه لحظة بلحظة، هو المَالِكُ الحقيقيُّ لها، فإذا كانت كل نِعَم الله تستحق الحمْد؛ فإنَّ ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ تستحق الحمْد ليل نهار، لأنَّه لو لم يوجد يوم للحساب لنجَا الذي ملأ الدنيا شرورًا دون أن يُجازَى على ما فعل ولَكَان الذي التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه مِن مُتع دنيوية كثيرة إرضاء لله؛ قد شَقِيَ في الحياة الدنيا، ولكن لأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أعطى الاتزان للوجود كله، هذه المِلكيَّة ليوم الدين هي التي حمَت الضعيف والمظلوم وأبقَت الحقَّ في كون الله، إنَّ الذي مَنعَ الدُّنيا أنْ تتحوَّل إلى غابة يفتِكُ فيها القويُّ بالضعيف والظالمُ بالمظلوم؛ هو أن

هناك آخرة وحسابًا، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي سيُحاسِبُ خلقَه على أعمالِهم صغيرها وكبيرها دقَّها وجليلها علانيتها وسرَّها.

فيا أيتُها النفس الأمَّارة الجهولة! ليس أمامَك الآن إلَّا أنْ تفري إلى الله، وتعتصمي بحبلِه المتين، فالعواصفُ الهائجةُ على وشك الضرب بأغصانكِ الشاحبة! فإلى متى وأنتِ تُسَوِّفِينَ التوبة مِن يوم إلى غد؟! فكم مِن غدٍ بقي لك في أيامكِ المعدودة المحدودة؟! هذه أنوار ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ تضيءُ لكِ علامات الطريق إلى الله، فاعقدي العزم على تحقيق الشهود القلبي ليومِ الدِّين، سيرًا إلى الله ربِّ العالمين، تنالي الخيرَ والنَّعيم وتَقي نار الجحيم.